الف سنة بين «أوربان» و«بنيديكت» ولم يتغير شيء!

د. المتوكل طه*

■ ما كدنا ننتهي من الرسومات المسيئة للرسول الأعظم، والتي ذكرتنا بالناسك بطرس الذي حمل رسما يظهر فيه «التركي الفظ» وهو يضرب المسيح، وراح يلوب في المدن والقرى يثير الناس ويحرضهم لتخليص قبر المسيح من «الأتراك الملاحدة» أو من «المحمديين الوثنيين»... حتى طالعنا بنيديكت XVI بتصريحاته الممضة، ولتخرج علينا صحيفة «لو فيغارو» الفرنسية وهي تصب على النار زيتا.

وها نحن نرى سباق المثقفين الغربيين من كتاب ومخرجين وسياسيين ومفكرين وفنانين في توجيه الاهانات «العميقة» للاسلام، وسبق ذلك في بداية القرن العشرين بحثٌ محموم لتقديم الاسلام بطريقة مشوهة تدعو الى الرثاء، وجرت قراءة الاسلام وتفسيره بمناهج البحث الغربية وبالمنطلقات القيمية والمعرفية الغربية، فأصبح الاسلام ظاهرة «ضد المدنية والتقدم» باعتباره دينا مسلحا يخلو من الطرب والخمر وحرية النساء وحرية الغلمان، وليس من الغرابه ان دعت العلمانية الى مذهب الغلمانية وسنت القوانين وسيرت المظاهرات تاييدا لهذا المذهب الذي اصاب قوم لوط فخسفهم ربهم اعمدة من الملح المر.

والمشكلة هنا انهم يهاجمون اسلامنا وينهبون ثرواتنا ويحتلون أرضنا ويغيرون مناهجنا ويعلموننا الديمقراطية وحقوق الانسان وحرية المرأة وحرية اللواط ايضا.

ومنذ العام 1830 وحتى هذه اللحظة ونحن لم نتعلم شيئاً سوى الفوضى والتفكك ومزيد من التشظي والتخلف دون ان نتخلى عن الاسلام، اذن، هناك مشكلة حقيقية، وبدلا من ميلاد انظمة ومجتمعات تتعلم من الغرب وتسير على هديه ومنهجه، فقد زرع الغرب في بلادنا اسرائيل لتكون لنا نموذجا يحتذى في احترام حقوق الانسان وحقوق الغلمان ايضا، وبدلا من ان تسير خطط التنميه والتقدم والتحرر في بلادنا، فقد ضرب الغرب بيديه او بايادٍ اسرائيلية كل علامات التقدم والتنمية، وهكذا فان بلادنا التي تسبح على بحار النفط والذهب والفوسفات تحولت – بقدرة قادر – الى أفقر بقاع الأرض وتحولت مجتمعاتها التي تربط بينها روابط اللغة والتاريخ والهدف الى اكثر المجتمعات فرقة واختلافا.

وبعد كل هذا الظلم والاحتلال والاستغلال والاهمال والقتل والهدم والتفكيك والتهميش والتحقير، يأتي «مثقف ما» او «مفكر ما» او «سياسي ما» ليعلمنا الاسلام الصحيح واللغة الصحيحة والديمقراطية التي لا مثيل لها! فنغمة المستشرقين الأوائل الذين كتبوا تقاريرهم للمخابرات ومن ثم حولوها الى كتب علمية تناقلها مثقفنا العربي وجعل منها هاديه ونبراسه، تتكرر اليوم بالطريقة ذاتها، ولكن باختلاف ان من يُصدر النغمة هم السياسيون والقادة الاقل ثقافة او قلُ الأكثر غباءً في العالم.

وحتى نضع الامور في نصابها الصحيح، وحتى لا نضيع في متاهات وردود أفعال انفعالية ونتحول الى مدافعين عما الصق بنا وبديننا من اتهامات، فان من دواعي الحق والحقيقة القول ان كل هذا يَصُب في خانة واحدة، عنوانها الكبير والصغير، السيطرة على منطقتنا العربية والاسلامية خدمةً لهدفين اثنين لا ثالث لهما:

نهب ثرواتنا من جهة وحماية اسرائيل من جهة أخرى ولا شيء آخر.

ونذهب الى التاريخ قليلا ففي يوم 18 تشرين الثاني (نوفمبر) من العام 1095 ـ أي قبل ألف سنة تقريبا ـ وقف البابا اوربان في مدينة كليرمونت بفرنسا وقال امام ثلاثمائة وعشرة من الأساقفة والقساوسة ما ننقله بالنص هنا «يا خزينا، يا عارنا، اذا ما انتصر جنس يتسم بهذه الحقارة والانحطاط وتستعبده الشياطين والعفاريت، على شعب انعم الله القدير عليه بالايمان وتباهى باسم المسيح».

في هذا الخطاب الذي شكل الأساس لما عرف في حينه بالحروب الصليبية، وصف البابا المذكور المسلمين بهذه الأوصاف «الجنس الخسيس، الكفار، البرابرة، الأتراك» وهذا الكلام لا نتقوّل به على احد، بل هو وارد في كتاب لقسيس يدعى فوشية الشارتري بعنوان «تاريخ الحملة الى القدس»، وكان هذا المؤلف القسيس اول قسيس صليبي في اول امارة صليبية اقيمت في بلادنا.

وبعد ألف سنة نسمع من جديد ان الاسلام فاشي، وان الحضارة الغربية افضل من الحضارات الاسلامية وان الاسلام متوحش وان هناك اسلامين: واحد ليبرالي مسالم وطيّع وناعم ومقبول، وآخر ارهابي ومتعصب ومتزمت، وان المسلمين نوعان: معتدل ومتشدد، وان الأنظمة والشعوب العربية والاسلامية مختلفة ومتنوعة باختلاف قربها وبعدها عن مكدونالد وكوكاكولا وبريتني سبيرز، ولا احد يتحدث عن النفط او عن اسرائيل.

الغرب استعلائي واقصائي تماما، اوربان هذا الذي شتم «الاتراك الذين هم شعب فارسي»، كما قال، لم يكن يعرف شيئا عن العلماء والفلاسفة والشعراء والكتّاب العرب والمسلمين، ولم يكن يعرف شيئا عن عظمة القاهرة وبغداد وحلب والقدس، حتى معلومات الغرب عن الطب لم تكن تزيد عن معرفة حلاّق في بلدة ريفية نائية، ومن يقرأ ما كتبه اسامة بن منقذ عن علوم الفرنجة الطبية سيضحك طويلا، ورغم ذلك يقف اوربان بكل ثقة ليقول ان المسلمين هم جنس يتسم بالحقارة والانحطاط، هل لهذا علاقة بما صرح به جون بولتون قبل شهر تقريبا ان هناك فرقا بين دم ودم وقيم وقيم... خلال تبريره للعدوان الاسرائيلي على لبنان.

تقوم حكاية الغرب على انهم جنس ارفع، بالعرق والدين والمعرفة، وتقوم حكايتهم على ان التاريخ هو تاريخهم وان الكون يدور حولهم، وانهم صانعو الاتجاهات والمعايير والمصطلحات وانهم الاقدر على بناء افضل السياقات الروحية والارضية معا.

الحضارة التي اقاموها اعتبروها نهاية ما يمكن الوصول اليه بشريا، وهم ينكرون على الآخرين مساهمتهم في صياغة او بناء هذه الحضارة، وهم ـ لجهلهم أو غرورهم أو وهمهم ـ ويعتقدون أن هذه الحضارة وصلت الى غايتها المجتمعية ـ بالحرية الفردية ـ وغايتها السياسية ـ بالديمقراطية السياسية ـ وبهذا لم يبقَ سوى تحقيق النبوءات الكبرى، وهكذا تصاب هذه الحضارة بكل ما تصاب به الحضارات القوية، البحث عن الاوهام من اجل تطبيقها او الانفجار من داخلها بحثاً عن اوهامها.

وفي خضم هذا كله يخرج علينا البابا الالماني الجديد باسمه البروتوكولي بنيديكت او بنيديكتوس او كلاهما، ويفاجئنا الرجل بأنه فكّه وطروب وصاحب ابتسامة تقطر ايماناً وتفهّماً وتقوى وقداسة، ويفاجئنا ايضا انه لم يتقدم قيد أنملة عما قاله اوربان قبل الف عام، رغم الانفجار المعرفي وتوالد محطات التلفزة الفضائية وانتقال العالم من غابة الى مجرد قرية صغيرة تشرب الكوكا كولا وترقص على انغام الروك والبلوز والفانك ... يخرج علينا هذا الرجل في الوقت الذي لم يعد في الغرب ما يبهر سوى قوته، ليس الاّ فحكايته حول تعريف العالم وتفسيره لم تعد مقنعة، حتى هو لم يعد يُصدقها.

بابا روما الجديد اذن، لم ينتبه ولم يتعلم ولم يقرأ ما حدث طيلة الف سنة وأعاد القصة الى أولها، أي ان البابا الجديد يقدم الغطاء الديني اللازم من أجل السيطرة على منطقتنا بالحديد والنار، فما دُمنا نتبع نبياً لم يأت الاّ بالسيئ والشرير، فلماذا لا نُصفى ونذبح وتؤخذ منا أراضينا وثرواتنا، ولماذا لا تتمتع اسرائيل بخيرات هذه المنطقة، ولماذا لا نُغزى في عقر ديارنا، ونُحرم حتى من شم الأزهار، ومن يقطع احد الحواجز العسكرية الاحتلالية في الاراضي الفلسطينية سيعرف وسيلمس معنى تصريح بابا روما هذا؟! اذ لأنك عربي ولأنك مسلم تموت زوجتك على حاجز «زعترة»، ان موت هذه الحامل على ذلك الحاجز وتحت عدسات الكاميرا لتشكل فضيحة أخلاقية لكل الحضارة التي ينتمي اليها البابا.

يجب عليّ ـ على الاقل ـ ان اعتبر ان تصريحات البابا ـ التي يدّعي أن المسلمين أساءوا فهمها وأخرجوها من سياقها ـ لا تخدم الحوار ولا التفاهم ولا أي أمر انساني ـ بقدر خدمتها الاستعمارية والتوسعية واستعمال القوة بأقصى حالتها وتوحشها بحق المسلمين في فلسطين والعراق وأفغانستان وكشمير والشيشان والفلبين وسريلانكا والبوسنة.

لقد صور البابا الجديد المسلمين ودينهم على انهم غير عقلانيين يتبعون دينا «يستعبدهم فيه الشياطين والعفاريت» كما قال اوربان قبل الف سنة تقريباً، كما انهم يدينون لنبي لم يأتِ سوى بالسيئ والشرير، وان المسلمين لا يستطيعون نقاش ربهم باعتبار ان ارادة الله فوق عقلهم لأنهم يمتنعون عن نقاشها او رفضها. ولم نقع هنا في ردة الفعل بحيث نشرح للسيد المبجل والمقدس ديننا، او موقع العقل في هذا الدين وما هو دور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في تقدم الكون كله، ولا عن معنى الاسلام وعلاقته بالآخرين، يكفي هنا ان نقول ان ايماننا لا يكتمل الاّ بالايمان بسيدنا المسيح وبقداسة أمه مريم عليهما السلام.

ما أريد أن أقوله هنا هو تذكير البابا الجديد بما تمت خيانته من المسيحية الحقيقية، وما تم من عمليات «انسانية» في تفسير ارادة الله وعقلنتها الى درجة أخرجت الأمر كله الى ساحة السخرية والعبث، وما تم من تجسير المسافة بين الله والانسان الى درجة أن تحول بعض الأشخاص ومنهم البابوات الى تنازع السلطة مع الله والمسيح نفسه.

ان نقاش ارادة الله بدعوى حرية العقل البشري أدى فيما أدى اليه الى التباس شديد ومربك ومحرج في طبيعة السيد المسيح ودوره ورسالته، ولان من المستحيل عقلنة أي دين ذلك ان في كل دين ـ مهما قل عدد أتباعه ـ مناطق لا يمكن للعقل ان يسأل او ان يتلقى اجابات، لهذا فان المسيحية الغربية بالذات قدمت اجابات على كل شيء ـ بدعوى العقل جعلت من كثير من مثقفيهم وفلاسفتهم وشعرائهم وكتابهم يقولون عن ذلك ما لا يمكنني نقله احتراما لمشاعر من نعيش معهم من أخوة لنا نحترمهم ونقدرهم ولا نفكر مطلقا بالاساءة اليهم.

ان كلام البابا الجديد عن ارادة الله وعقلنتها مضحك تماما، فهو يعرف ان الأديان لا تناقش، ولو قرأ شيئا عن الهندوسية او الهاريشية أو المورمونية او حتى اليهودية التي يفخر بالقاسم المشترك معها لأدرك ان العقل يقف حائرا من ارادة الله، ولكنه لم يلاحظ ذلك سوى في الاسلام، لأن أهله هم الذين يملكون النفط «ويهددون» اسرائيل.

البابا الجديد الذي درس اللاهوت في جامعات المانيا لمدة طويلة أثبت انه لا يقرأ التاريخ اطلاقا، فضلا عن جهله بالاسلام أصلا، فلو قرأ التاريخ لعرف ما معنى السيئ والشرير، فاذا قسنا السوء والشر بمعنى الاعتداء على البشرية وذبحها وسرقة ثرواتها وأراضيها وانتهاك العالم وتخريبه وتلويثه، فمن الأجدر هنا الاشارة الى حروب الأمم المسيحية في ما بينها ومن ثم حروب هذه الأمم ضد غيرها من أمم افريقيا واسيا وأمريكيا الشمالية والجنوبية لنعرف فظائع ما ارتكب بحق تلك الشعوب ـ النكته الحقيقية هنا ان قتل الناس وسرقتهم وتحويلهم الى بهائم او جثث تم باسم الدين المسيحي، والدين فقط.

ان البشرية جمعاء، ومنذ اول حرب وقعت بالتاريخ وحتى سنة 1914 لم يقتل من الناس بقدر القتلى الذين راحوا ضحية الحربين الأولى والثانية، وهي حروب بين أمم مسيحية تسابقت على النفوذ والتسلح والتميز والأوهام.

ان المسيحية الغربية هي التي أنتجت أفكار التميز والوهم مثل الفاشية والنازية واللاسامية، وهي التي اخترعت حروب الاستباق والوقاية وهي التي خلقت الاستعمار القديم والجديد وهي التي احتقرت البشر وهي التي احتقرت البيئة واستغلت العالم حتى آخر قطرة فيه.

لا يمكنني فهم تصريحات البابا بعيداً عن الجو العدائي والاستعلائي والاستعماري، لأنه في الوقت الذي أقدس فيه السيد المسيح ولا اذكره الا بالصلاة والسلام عليه، وفي الوقت الذي لا استطيع فيه الحركة بين مدينتين في فلسطين، وفي الوقت الذي يقتل فيه من أمتي يوميا العشرات او المئات، اسمع شخصا يمثل ارفع منصب ديني في العالم المسيحي يتهم نبي الرحمة، الذي علّم الناس حبُ الناس وحب العالم وحب الله، انه لم يأت الا بالسيئ والشرير!

واضح ان هناك خللاً ما، خلل كبير يجب اصلاحه. واذا كان اوربان ـ قبل الف سنة ـ أشعل حربا بحجة أنها «ارادة الله» لمدة ثلاثمئة سنة، فان البابا الجديد لم يشعل الحرب ولكنه يزيد أوارها المستعر، ليسرّع النهاية بالتأكيد.

* شاعر وكاتب من فلسطين

السكوت على دعوات التطهير الطائفي في سورية مشاركة في جريمة

د. أكرم شلغين*

■ ظهر المدعو فريد الغادري قبل أسبوعين على قناة «الحرة» التلفزيونية مطالباً العلويين في سورية بترك دمشق و«العودة الى الجبال» لأن «دمشق» على حد تعبيره، هي «عاصمة الأمويين وليست عاصمة العلويين»، وألحق الغادري مقابلته بتوزيع عدة مقالات مكتوبة بأسماء مختلفة ولكنها، بلغتها المليئة بالحقد والكراهية والحض على العنف الطائفي، تحمل نفس اللهجة الداعية الى التطهير الديني، التطهير الاثني في سورية، حيث توجه «النداء الأخير» للعلويين للتوجه الى الجبال. وقبل يومين أتبع الغادري ذلك ببيان صادر عما يسمى بـ«حزب الاصلاح» يحدد فيه موعداً أقصاه ما «قبل 8 تشرين الثاني/نوفمبر القادم» للعلويين للرحيل عن المدن الرئيسية.

ربما يظن أحدنا أن علينا اهمال ما قاله، وما وزعه، الغادري بذريعة أن الأخير لا في داخل سورية ولا في خارجها يمثل أحداً، ولأن شعب سورية ليس طائفياً ولا علاقة له بما يقوله الغادري، ولكن ما أن نتعرف على الأسباب التي دعت الغادري ـ وهو الذي ادعى العلمانية والليبرالية من قبل ـ للجوء الى هذا الخطاب حتى ندرك أن علينا التعامل مع نداء التطهير آنف الذكر بجدية أكثر. من ناحية ثانية، لا بد أن نميز أننا عندما نعطي جزءاً من وقتنا للخوض بهذا الأمر فان ذلك لا يعني أننا نعطي قيمة للغادري وانما ندرس ونحلل الخطاب الذي استقر عليه هذا الشخص، ونظهر موقفنا من لغة تدميرية لا لسورية ولا لشعب سورية مصلحة بها.

وعندما نجزم بأن لغة الغادري مستوردة ولا علاقة لها بسورية وبشعبها فاننا نفتقر الى الدقة في توصيف الواقع السوري لأن هناك بعض الأصوات التي تستخدم اللغة الطائفية، وفي كل الأحوال، ان من يحاول تصوير الشعب السوري وبعده عن النزعات الضيقة والفتن فانما يتكلم عن نفسه فقط، فالفتن الكامنة ـ والتي سببتها جرائم وممارسات نظام الأسد قبل غيره ـ هي أشبه ما تكون بنار خامدة تحت الرماد تحتاج لتهوية فقط لتنتعش فتهب وتلتهم وتدمر.

فيما يخص الغادري، لا بد من التذكير بأن المعارضة السورية في الداخل والخارج، ولأسباب عديدة منها ذاتية ومنها موضوعية، رفضت الاعتراف بالغادري كمعارض أو اعتبار أنه يمتلك الحد الأدنى من الوعي السياسي أو الثقافي الذي يخوله طرح نفسه كمعارض سوري. فالشخص المذكور اجتهد ليقدم نفسه بشكل ما كشخصية معارضة ولكن سرعان ما تبين من كلامه وسلوكه أنه بعيد عن، بل بالأدق جاهل أيضاً بـ، تاريخ وجغرافية سورية وآلام وآمال وطموحات شعبها. فبتزامن مع غزو العراق ظهر الغادري وأراد تقديم نفسه للمعارضه السورية، بشكل أو بآخر، على أنه «جلبي سورية»، الا أن الفشل كان رفيقه بشكل مستمر. ثم اعتمد سلسلة من التصريحات التي كشفت ضحالته وجهله بألف باء السياسة بل حتى وبموقع سورية على خارطة العالم، ومن ثم تبين أن أهداف الغادري لا تخرج عن نطاق طموحات في «البزنس السياسي». بكلمات موجزة، ظهرت صورة الغادري الحقيقية وبدا من الضعف بمكان يصعب فيه تقويته حتى ولو وزع صوره مع مسؤول في الادارة الأمريكية بالآلاف أو عمل حثيثاً ليجلب شتائم الدنيا لنفسه علّ اسمه يزداد تكراراً في محركات بحث الغوغل والياهو، الخ. وشيئاً فشيئاً بدأ الغادري يظهر بحجمه ووزنه الطبيعي، وانتهى الى ما هو عليه كأضحوكة المعارضة ومهرجها للبعض وجرَباً سياسياً، يجب الابتعاد عنه، للبعض الآخر.

نكثف هنا القول بما يجدر ذكره عن أن الغادري خلال السنوات التي ظهر بها لم يتوان حين أتيحت له الفرصة اعلامياً أو غيرها عن ترداد أنه «علماني» وأنه يريد محاربة الاسلاميين بل وأنه يخاف بشكل خاص من خطورة «التقية». ولم يأل الغادري جهداً في محاولة الاتصال بالمعارضة السورية والاقتراب منها واحتساب نفسه عليها، فعندما ظهر اعلان دمشق حاول وضع توقيعه كمؤيد للاعلان محاولة منه للاتصال بمن يتمثل بهم الاعلان لكنه قوبل بالرفض القاطع، وعندما ظهرت جبهة الخلاص حاول، ومن جديد قوبل بالرفض، وكذلك لم يستطع الغادري، على مستويات متفاوتة، أن يقترب أو يتقرب من المعارضة السورية.

بالطبع، ما لم يدركه الغادري هو السبب الحقيقي في ابتعاد المعارضة السورية عنه والذي أوجزناه في الأعلى بأن المعارضة السورية، وبعكس الغادري، هي من صلب الشعب السوري وتحاول أن تتشارك معه في الهموم والآمال. بالتأكيد، الحركة الوطنية السورية لها ما لها من مشاكل وعقد وهموم وعثرات ومصاعب هنا وهناك لكنها في نهاية الأمر، وبعكس الغادري، لها أيضاً ثوابت عندما يأتي الأمر الى قضايا سورية وشعب سورية وهي تعمل قطعاً من أجل الشعب السوري.

وسط هذا الرفض المطلق للغادري كان لا بد له ولمن ينصحه من التفكير في السبب الذي يؤدي الى نفور السوريين من «الغادري». لكن، بدلاً من البحث عن السبب الحقيقي وراء الرفض، اعتقد الغادري وناصحه، بشكل خاطئ، أن عدم نجاحه في التقرب من المعارضة السورية هو ابتعاده عن لغة الشارع السوري غير المعلنة وبتكراره لكلمة «علماني» عند توصيف نفسه سابقاً انما يضع نفسه في قطار آخر لا نية للسوريين بركوبه اذ أن هدف السوريين ـ كما يتردد، حسب فهمه، وعلى أكثر من منبر ـ هو «الخلاص من الحكم العلوي في دمشق»، من هنا، جاء توجه الغادري الجديد للتنظيف الاثني من العلويين اعتقاداً منه، وممن نصحه، أنه يتكلم لغة الشارع السوري وأن الناس ستتهافت عليه بأعداد كبيرة.

اذا تركنا الغادري ـ يكرر ما لُقّن به، لنتفحص الخطاب الطائفي، الواصل حد المناداة بالتنظيف الاثني، الذي يستخدمه، نرى أنه لا بد من التمعن بطبيعة النظام الحاكم في دمشق والى أي حد يمثل العلويين أو الى أي حد يتمثل به العلويون، وفيما اذا كان دقيقاً تصنيف النظام الحاكم في سورية بالحكم العلوي أم أن من يحكم في دمشق ليس الا تشكيل ديكتاتوري فاسد يضم مختلف الطوائف برئاسة آل الأسد ـ الذي صاقب أنهم علويون ـ اجتمعت رموزه انطلاقاً من مصالحها الذاتية وتصميمها على سرقة سورية وقمع شعب سورية. من هنا، علينا التركيز على أن الديكتاتورية لا تنبع من، ولا تتغذى على، دين أو قومية ولو كان منطق ربط ديكتاتورية ودموية نظام الأسد بعلوية حافظ الأسد ووريثه صائباً لكان هتلر وموسوليني وستالين وبول بوت وصدام حسين قد نهلوا مما يسميه البعض «مجلس الطائفة العلوية» في سورية.

وان يكن حافظ الأسد علوياً ولم يأتمن على صمامات أمان حكمه «أمنياً» الا ضباط العشيرة بل ووصل مع وريثه حداً حصرها في العائلة، فان قراءة موضوعية لطبيعة النظام السوري توضح أن قوام التشكيل الذي بناه حافظ الأسد وحكمت وتحكم به سورية برئاسة عائلة الأسد منذ عام 1970 يتكون من نماذج تتشاطر فيما بينها بتفاهمات، معلنة كانت أو غير معلنة، وتنحصر أهدافها في السيطرة على القرار السياسي وعلى المقدرات الاقتصادية للبلد، وهذا التشكيل الحاكم في سورية يشتمل على العلوي وغير العلوي، ولو استعدنا الماضي مثل رؤيتنا للحاضر لوجدنا أن اعتقالات واغتيالات حافظ الأسد لخصومه طالت العلويين قبل غيرهم. نظرياً، أراد حافظ الأسد أن يقول ان حكمه يمثل كافة فئات الشعب السوري فنصّب في هذا المكان أو ذاك مسؤولين من طوائف مختلفة، ولكنه عملياً اختار من كل طائفة من يتوافق ويتشابه معه في ذهنية الاستغلال والقمع والبلطجة، أي أن علاقة من وضعهم حافظ الأسد في دفة الحكم معه من الطائفة السنية وسواها مع طوائفهم تشبه الى حد كبير علاقة آل الأسد بالطائفة العلوية، بمعنى أن الأسد لا يمثل العلويين الا بقدر ما مثل السنة عبد الحليم خدام عندما كان نائباً للرئيس أو بمقدار ما مثل، ويمثل، طلاس والشرع ومشارقة وغيرهم ممن يتشاطر مع آل الأسد في الحكم السنّة. ولعل تباهي مصطفى طلاس بتوقيعه أوامر اعدام ما معدله مائة وخمسون سوريا في الثمانينات (دير شبيغل 21 شباط/فبراير 2004) يوضح، من حيث يدري أو لا يدري، من هو وما هو موقعه من النظام، بل ويتماهى طلاس في التحدي (في نفس المقابلة مع دير شبيغل) بقوله: «استخدمنا السلاح لسيطرتنا على السلطة وحافظنا عليها، ولن نتخلى عن السلطة الا بالسلاح». أما ضمير «نحن» الفاعل المقصود بكلام مصطفى طلاس في «استخدمنا» و«لن نتخلى» فبالتأكيد لا يعود للعلويين ولا للسنة ولا للمسيحيين ولا للدروز ولا غيرهم وانما قطعاً لأفراد النظام الحاكم وحلفائهم، بمن فيهم طلاس نفسه، كمستفيدين رئيسيين منه. ولا يوجد أدنى شك، أنه لو جيء بقول مصطفى طلاس آنف الذكر دون معرفة قائله ووضع للمناقشة في احدى غرف البالتوك الاسلامية لسمعنا أكثر من جازم بأن قائله «نصيري» يتمسك بمكاسبه... من يعرف سورية جيداً وماذا يُمارس بها، يعرف أن اجهزة التشكيل الحاكم تزرع الرعب والهلع منذ السبعينات على نفس المستويات في كل مدن وقرى سورية ويعاني من ذلك العلوي مثل غيره. لهذا يكون من الظلم للعلوي الذي عانى ما يعانيه من نظام الأسد أن يسمع ما يسمعه ويقرأ ما يقرأه هنا وهناك.

نعم، يوجد مشكلة في سورية اسمها مشكلة الطائفية... وان هربنا من معالجتها وتعامينا عنها فاننا لا نحلها بذلك، وحرصاً منا على سورية وشعب سورية بدون تمييز فيها بين أي كان مهما كانت هويتها الدينية، أو الاثنية أو السياسية، يتوجب علينا جميعاً الكلام عنها بكل جرأة ووضوح ودراسة امكانية معالجتها بشكل سليم وتفاديها.

في ثمانينات القرن الماضي كان هناك قتل على الهوية ولا نستطيع محوه من التاريخ مهما تفادينا الكلام عنه، وكان هناك صدام بين السلطة في سورية وبين الاسلاميين عانى جميع السوريين، بشكل أو بآخر، من نتائجه السلبية وأثره الهدام، ليست نهايته اغتصاب القرار السياسي لتعزيز موقع حافظ الأسد وزمرته. نعم، مرة ثانية نكرر يوجد مشكلة طائفية أسبابها اقتصادية، اجتماعية، سياسية، وتاريخية.

نعم، ازداد عدد العلويين بشكل ملحوظ في كل مدن سورية وليس في دمشق وحدها، وهذا ليس بالأمر غير العادي وفقاً للحركة الديموغرافية للسكان وغيرها، ولكن ذلك لا يعني أن دمشق كانت خالية من العلويين على الاطلاق من قبل. ربما كانت الهوية الدينية لا تعني الكثير للسوريين قبل حكم حافظ الأسد ولهذا لم يلتفت أحد الى وجود العلوي في دمشق أو في المدن الأخرى. بكل أسف، ونتيجة ربط قمع ودموية حافظ الأسد بهويته الدينية أصبحت الصورة ضبابية وهناك خلط ما بين سائق التاكسي العلوي في شوارع دمشق وبين الجلاد في فرع فلسطين وغيره، بل وأخطر من ذلك اختلطت الصورة حتى بدأ البعض لا يميز بين السجين عارف دليلة أو فاتح جاموس وبين السجّان الأسد، وأكثر أننا نسمع من منابر اعلامية على الانترنت، بكل أسف، أن عارف دليلة وفاتح جاموس دبرا «مسرحية سجنهما» بالاتفاق مع «النظام العلوي!».

وكما يعيش معظمنا نفس الهموم السياسية، فان المشاكل الاقتصادية لا تنحصر في طائفة ما أو في منطقة ما وانما نعاني منها جميعاً. يبقى أن نذكر مرة أخرى أنه يتوقف علينا وعلى وعينا ونظرتنا للأمور كيفية قراءة ما يجري في سورية، فهل نركز على أن الأسد وارث الرئاسة، والأسد مورثها كذلك، ديكتاتور لأنه علوي أم أنه يفعل ما يفعله في سورية حصراً من أجل هدف واحد يتمحور في الحفاظ على السيطرة الكاملة على مقدرات البلد؟ بسبب مشاكل السوريين مع السلطة يتم الخلط ونسمع ما لا يستطيع واحدنا أن يأخذه دائماً بشكل مزاح، يقال الكثير في غرف البالتوك عن العلويين «النصيريين» وهناك من يعد بتوزيع «الصرامي» خصيصاً لضرب كل علوي تقع عليه العين بدون تمييز بعد سقوط النظام السوري، ولكن، فضلاً عما يتركه هذا الخطاب من آثار سلبية فانه يقوي، شئنا أم أبينا، من سلطة آل الأسد اذ يجعل الطائفة العلوية بهذا الترهيب والوعيد يصطف قسم منها، حقاً أو باطلاً، وراء آل الأسد كحام لهم من تهديد الاخرين.

كتب أحدهم عما رآه في نابولي بايطاليا فوصف لصاً محترفاً نشل كاميرا من حقيبة معلقة على كتف أحد السياح مستبدلا الكاميرا بنفس الوقت بحجر معادل لوزنها. ثم يتابع «ضبطني النشال وأنا أراقبه لكنه لم يهرب، بل تسمر في مكانه غامزاً بعينه وكأنه يشركني في صنيعه». نورد هذا هنا لكي نذكر أننا ان سكتنا على الخطأ في الخطاب الذي يكرره الغادري، الداعي للتطهير الاثني في سورية، فانما نمتثل لرغبة من يريد اشراكنا في جريمته، وبذلك نساهم في تمديد عمر النظام السوري ونتعامى عن كوارث تنتظر سورية في مرحلة ما بعد نظام الأسد.

ربما كلنا مشغول بالهم الكبير وهو الانتهاء من حكم الأسد لسورية ولكن ما لا نفكر به هو الهم الأكبر، في الواقع، وهو مرحلة ما بعد الأسد. علينا جميعاً كسوريين أن نضطلع بمسؤولياتنا ونحدد ما هي سورية التي نريدها! أنريد سورية اقصاء وتفتتا أم سورية قوية تضمد جراح الماضي وتتطلع للمستقبل؟ أنريد سورية المستقبل أن تكون سورية المواطنة بكل ما تعنيه من حقوق سياسية، اقتصادية الخ أم سورية البعض وكما يمارس النظام الحالي؟ أنريد سورية لكل أبنائها أم سورية اقتتال وتشتت ومشاكل لا أحد يدرك أين ستقود!؟ أنريد محاكمة رموز النظام وكل من شارك بالقتل وكل من ابتلت يده بدم الشعب السوري ومن سرق الشعب السوري أم نساعد هؤلاء ليركبوا طائراتهم ليعيشوا حيث أموالهم مودعة واستثماراتهم قائمة ويبقى فقراء الشعب السوري من كل الطوائف والاثنيات للمجهول!؟ أسئلة تتطلب منا جميعاً التفكير والتصرف بمسؤولية عالية.

انني على قناعة بأن شعبنا الذي خذل دعاة الطائفية في زمن الاستعمار الفرنسي وأثبت في الماضي ترفعه عن الطائفية والانجرار الى الفتن وأقام جبهة وطنية موحدة قادر من جديد على احباط كل محاولات الفتن الطائفية وسيرمي دعاة الطائفية الى مزبلة التاريخ.

* كاتب من سورية

ماذا يحدث في تونس: محاكمات سياسية أم تباشير اصلاح؟

مرسل الكسيبي*

■ بعيدا عن الأحكام المسبقة فان للسياسة قواعد وموازين تسير بحسبها، وهو ما ينطبق عموما على مفاصل الفعل والحراك السياسي نتائج ومحصلات، ولذلك نذهب يقينا الى أن ما يحدث في تونس منذ سنوات طويلة كان نتيجة لاختلال موازين القوى بين الدولة بفاعليها الرئيسيين ومجتمع مدني عانى كثيرا من التمزق وعمق الانقسام الايديولوجي وهو ما تجلى ضعفا وترددا وصراعات بين مختلف مكونات النخبة والفضاء العام، حتى أنه حن لأحد الأصدقاء أن يتندر بأن يشتري مساحة اعلانية على صحيفة «الوسط» التونسية ينعى فيها موت السياسة رسميا واحتجاجيا في تونس...

واذا كنت لا أشاطر صديقنا المشار اليه الرأي في تقويمه المبالغ في التشاؤم لارتسامات المشهد السياسي التونسي، الا أنه بالامكان استقراء حالة من التفكك الواضح للأسرة السياسية المعارضة من خلال فشلها في تحويل مبادرة حركة 18 أكتوبر الى حالة نهوض وطني شامل تعيد الاعتبار لمعاني التوازن بين الدولة والمجتمع.

وحتى نكون من المنصفين فانه يتعين علينا القول بأن اصرار نظام الحكم على تمزيق هذا الحلف الناشئ والهش على أرضية استعمال السلاح الايديولوجي الناسف، ساهم في ابقاء المجتمع الأهلي والمدني في حالة من الحيرة والشك والتردد وانعدام جسور الثقة، الشيء الذي انعكس على تردد السلطة في الاقدام على خطوات انفتاحية مشجعة على الانخراط في منظومة الاصلاح الداخلي.

الاصلاح الداخلي كان محموما لدى سلطة الاشراف والقرار بهواجس سياسية شجع عليها ونماها وجود جناح يساري قوي داخل أجهزة التجمع ـ أي الحزب الحاكم ـ وأجهزة الأمن التي باتت خليطا من السادي المتسلق والسياسي الطامح والايديولوجي المستميت...

مواقع القرار في تونس أصبحت متعددة الى الدرجة التي أصبح فيها البعض يحرض أعلى هرم السلطة على عدم الاقدام على أي خطوة اصلاحية ولو في اطار من العفو الخاص وليس العام...

البعض يريد قطعا الابقاء على ماهية الأوضاع الحالية في اطار ما يطمح اليه من شرعية تجديدية للملف السياسي في صورة ما اذا حصل أي فراغ!

والبعض الاخر يتحرك من داخل أجهزة السلطة في اطار مواقع استشارية قصد تجميد الأوضاع السياسية الحالية خوفا مبالغا فيه وغير مبرر من المنافسة السياسية الحقيقية في صورة ما اذا وقع الاصلاح المرجو والمأمول.

وعلى الضفة الأخرى حيث المعارضة، نكاد نرى المشهد الايديولوجي يلقي بظلاله مجددا على واقع الفضاء العمومي، اذ أن قضايا الحجاب والميراث ما زالت تداعب البعض كأحابيل من أجل نسف أي تشكل سياسي يتعالى عن دكاكين الايديولوجيا البائسة... أما البعض الاخر فما زال حالما بالثورة والشعب الذي أرهقته لقمة العيش، وهو ما جعل صوته الحزبي المسموع سابقا يتراجع الى مواقع خلفية غير مرجوة وغير مأمولة...

أما عن أكبر فصائل المعارضة بتقدير ما هو غالب وسائد في المنطقة العربية والاسلامية، فان هذا الأخير لا زال يعاني من نزيف حقيقي نتيجة تواصل رحلة السجن والمنفى والمحاصرة الأمنية والسياسية، هذا علاوة على ما خلفته الأزمة ونتائجها السياسية والثقافية الخطيرة على المجتمع من أزمة ثقة تجاه الخطاب السياسي للقيادة وجدوى ما طرحته من رؤى حملت الحزب على كثير من التراجع وخسارة مساحات واسعة من الفعل والحركة.

واذا كان للنهضة اليوم تيار تجديدي واسع يوجد بداخلها وعلى حواشيها وأيضا خارجها بعد أن قرر الكثيرون من أبنائها اختيار مساحات معتبرة من الاستقلالية الحزبية والسياسية، فان ما تحمله رؤى هذا التيار الشبابي والتجديدي من طموحات وطنية لا تخرج عن اطر المشاركة والمساهمة والتقارب بين النخب والمصالحة على أرضية أن الوطن سفينة للجميع ولا يجوز لأي كان أن يخرقها أو يستفرد فيها بالمصير، فان هذا التيار ما زال الى حد هذه الساعة لم يعلن عن نفسه في تشكل يمكن أن يخرج البلاد من حالة الاستقطاب الثنائي المرير وذلك لاعتبار نمط تعاطي السلطة الى حد هذه الساعة مع كل المعارضين الحقيقيين بأسلوب الخيار الأمني.

ان تواصل وتيرة المحاكمات السياسية واخرها ما حصل في حق عناصر قيل انها قريبة من حزب التحرير، علاوة على ما تعرض له واحد من أبرز وجوه الاعتدال السياسي وهو الأستاذ حمادي الجبالي وزوجته من تحقيق قضائي بتهمة تتغلف بطابع قانوني في الأيام الأخيرة، يضاف الى كل هذا تواصل مأساة الساجين السياسيين في واحدة من أطول مسرحيات الاعتق